أسلوب القسم الصريح في الحديث النبوي- دراسة حديثيه بيانية

د. حسين يوسف لافي قزق و د. منصور محمود محمد الشرايري
جامعة البلقاء التطبيقية
كلية إربد الجامعية

ملخص

يهدف البحث إلى معرفة أغراض القسم النبوي، والمعاني البيانية التي تضمنتها هذه الأيمان، وذلك عن طريق أحاديث نبوية اشتملت على قسم صريح. ويرى الباحثان أن تحقيق هذا الهدف يظهر بدراسة ألفاظ القسم النبوي، ودراسة نماذج من الأمور المقسم عليها.

بدأ الباحثان الدراسة بمقدمات نظرية لأسلوب القسم في اللغة العربية ، ثم تناولا ما ثبت من الألفاظ والتراكيب المستعملة في القسم النبوي، وشرح دلالاتها البيانية، تلا ذلك بيان أغراض القسم النبوي من خلال عشرة نماذج من الأحاديث التي اشتملت على قسم، وكان أهم هذه الأغراض، التحذير والترهيب من مخالفة أمر الله تعالى، والحض والترغيب على خير ما، ودفع الشك عن الخبر أو توهم المجاز والمساهلة في حمل الخبر محمل الجد، ومراعاة حال المخاطب، ومراعاة حال الخبر، إلى غير ذلك مما سيظهر في الدراسة.

الكلمات المفاتيح: القسم، النبي، اسلوب القسم ، المدونة.

Résumé

L'objectif de cet article est de montrerer la spécificité du serment (el kassam) du prophete mohamed (Dieu bénit son ame) à partir de l'analyse d'un corpus de dix hadiths traitant des themes du bien et du mal. L'analyse commence par un rappel théorique mentionant la forme et le style de sements en général et la singularité de celui du prophete.

Mots clés : Serment, prophete, style de serment, corpus.

Abstract

This research aims at identifying the purposes of the prophetic swear and rhetoric meanings implied in these oaths through the Prophetic traditions which include obvious swear. The researchers believe that this can be achieved by studying the utterances of the prophetic swear and instances of things sworn at.

The researchers started with theoretical introductions about the style of oath in Arabic language, stated words and structures used in the Prophetic swear, explanation of their rhetoric meanings, followed by an explanation of the purposes of the Prophetic swear through ten instances of prophetic traditions which include oath.The most important purposes are: warning and intimidating of the disobedience of God, prompting and awakening a desire in good deeds, not suspecting the report or imagining the lawful, tolerance of taking something as serious, consideration of the state of the adressee, taking care of the state of the report and other things that will be discussed in the study.

Keywords: Swear, the Prophe, style oath, corpus.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، الذي أُرسل إلى الثقلين بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.

وبعد ، فإن أسلوب القسم ظاهرة لغوية تتفرد به اللغة العربية دون غيرها من اللغات [1]، ففي اللغة الإنجليزية – مثلا – يستخدم في القسم كلمة swear ، وليس له اهتمام كبير عندهم ، وأما في اللغة العربية فللقسم أهمية كبرى، وللعرب أقسام كثيرة كانت تعتد بها، من أشهرها القسم بالبيت الحرام، قال زهير [2]:

فأقسمتُ بالبيتِ الذي بنَوْهُ   رجالٌ مِن قريشٍ وجُرهُمِ

وأعطوا المقسم به قيمة كبيرة وتقديسا، كما في شأن القسم بالبيت الحرام، والقسم باللات والعُزّى وغيرها.

وأما في الإسلام فقد وردت الأقسام كثيرة في القرآن الكريم، فقد أقسم الله بذاته، وبنبيه، وبالقرآن الكريم، وببعض المخلوقات كالليل والضحى والصافات وغيرها .

وقد ظهر الاهتمام عند علماء المسلمين بهذه الظاهرة مبكرا، فقد أفرد لها الزركشي جزءا من كتابه البرهان في علوم القرآن، وكذلك السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن، وجعل ابن الجوزي كتابا كاملا في أقسام القرآن سماه "التبيان في أقسام القرآن"، مما يعطي إشارة إلى شدة الاهتمام بهذا الموضوع.

وكان للقسم شأن أيضا في الحديث الشريف، حيث استخدم رسول الله عليه السلام القسم، غير أنه لم يقسم بغير الله تعالى، بعيدا عن أقسام الجاهلية التي تعبر عن تعظيم الأشياء في فكرهم، حيث حرم الإسلام القسم بغير الله تعالى، وعدَّه شركا، قال رسول الله عليه السلام: "من حلف بغير الله فقد أشرك أو كفر" [3].

وقد جاء في زاد المعاد لابن القيم رحمه الله تعالى قوله :((وحلف – يعني رسول الله عليه السلام– في أكثر من ثمانين موضعا، وأمره الله سبحانه بالحلف في ثلاثة مواضع: فقال تعالى : **{وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ}**(يونس 53) وقال تعالى:**{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}**(سبأ 3)، وقال تعالى:**{زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}** (التغابن7)[4].

وهذه العبارة تثير في الإنسان العجب من حب هذه الأمة لنبيها عليه السلام، حتى جعلها هذا الحب على إحصاء أقسام الرسول عليه السلام ، وتتبع أقسامه عليه السلام لمعرفة ما أقسم عليه، ولماذا أقسم.

وقد اعتمدت الدراسة على ما صحَّ من الأحاديث النبوية، محاولةً استقراء جميع الأقسام التي كان يقسم بها النبي عليه السلام، واستيعاب جميع الألفاظ التي يقسم بها.

ولما كان استقصاء جميع أقسام النبي عليه السلام مما لا تستوعبه هذه الدراسة، فقد تم اختيار بعض هذه الأقسام للوقوف عندها وقفة تأمل، لتحليل مضمونها، لعلنا نقف على شيء من أسرار هذا القسم النبوي.

وأخيرا، فليست تدّعي هذه الدراسة الصواب في كل ما أتت به، بل حسبها أنها اقتربت من الموضوع، ويكفيها أجر المحاولة.

المبحث الأول: أسلوب القسم، دراسة لغوية نظرية

تعريف القسم :

القسم لغة: القَسَمُ بالتحريك: اليمين، والجمع أَقْسام، وقد أَقْسَم بالله، وقاسَمَه: حلَف له. وتَقاسمَ القومُ: تحالفوا، وتَقَاسَما : تَحالَفَا[5].

القسم اصطلاحا: هو يمين يقسِم بها الحالفُ ليؤكد بها شيئاً يخبر عنه من إيجاب أو جحد، وهو جملة يؤكد بها جملة أخرى[6]. وقيل هو: توكيد الشيء بذكر اسم أو صفة لله تعالى[7].

أركان القسم :

بالنظر في التعريف الاصطلاحي للقَسَم نجد أن أركان القَسَم هي:

1- جملة: وهي الجملة المؤكِّدة، وهي جملة إنشائية، وذلك نحو:**{وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}**(العصر 1، 2)، فهي جملة إنشائية جيء بها للتوكيد[8] . وقد تقع خبرية نحو: أقسم بالله، أشهد..[9] . قال تعالى:**{وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّـهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ}**(المائدة 53).

2- جملة المقسم عليه: وهي الجملة المؤكَّدة، وهي في الغالب جملة خبرية، وقد تكون جملة إنشائية. فمن الخبرية قول الشاعر[10] :

أقسمت بالله لا ينفك مغتفراً   ذنب الصديق، وإنْ عقَّ، وإنْ صرما

ومن الإنشائية، ويسمى القسم هنا قسما استعطافيا[11]، قول عبد الملك لصديق له في قتله عمرو بن سعيد: أقسمت عليك لتقولنّ. فقال: لو قتلته يا أمير المؤمنين وأنت حي كان جميلا..[12]. فقوله "لتقولن "جملة إنشائية طلبية لا يصدق عليها التصديق ولا التكذيب.

3 - المُقسَم به: وهو الاسم الذي يدخل عليه حرف القسم، وذلك نحو قول أبي الأسود الدؤلي لمعاوية في طلاق زوجته: "واللهِ يا أميرَ المؤمنين ما طلقتُها عن ريبة ظهرت، ولا لأي هفوة، ولكني كرهت شمائلها فقطعت عني حبائلها"[13]، فالمقسم به اسم الله عز وجل، وكذلك كلُّ اسم ذُكِر في قَسَمٍ فهو المقسم به[14]. ولا ينبغي أن يكون إلّا باسم معظَّم في ذاته أو لمنفعة فيه، أو للتنبيه على كوامن العبرة فيه[15] . وقد أقسم الله في كتابه الكريم بذاته، وباسم نبيه، وببعض مخلوقاته كالتين والزيتون وغيرها[16] .

أنواع القسم :

أولا: القسم الصريح أو الظاهر: وهو ما كان فيه القسم صريحاً أو ظاهراً، ويستدل عليه بحرف القسم، وهذا النوع من القَسَم هو مدار هذه الدراسة، وهو نوعان:

1- ما كان جواب القسم فيه جملة خبرية، وهو الكثير الشائع من أساليب القَسَم.

2- ما كان جواب القسم فيه جملة إنشائية، وهو قليل في أساليب القَسَم.

ثانيا: القسم المضمر: وهو ما لم يذكر معه القسم صريحا أو ظاهرا، وليس من شأن هذه الدراسة أن تتعرض لهذا النوع من القَسَم، وذلك نحو قوله تعالى:**{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}**(النحل 93)، وَاللَّامُ فِي" ولَتُسْئَلُنَّ" مَعَ النُّونِ الْمُشَدَّدَةِ تَدُلّ عَلَى قَسَمٍ مُضْمَرٍ، أَيْ وَاللَّهِ لتُسئلنّ[17] .

ألفاظ القسم :

أولا: حروف القسم

حروف القسم خمسة هي: الباء، والواو، والتاء، واللام، ومِنْ. قال سيبويه: ((وللقسم والمقسم به أدوات في حروف الجر، وأكثرها الواو، ثم الباء، يدخلان على كل محلوف به، ثم التاء، ولا تدخل إلا في واحد، وذلك قولك: والله لأفعلن، وبالله لأفعلن، و{**تالله لأكيدن أصنامكم**}(الأنبياء 57)[18]. واللامَ من حُرُوف الْقسم إِلَّا أَنَّهَا تقع على معنى التعجب، وَذَلِكَ قَوْلك: للهِ مَا رَأَيْت كَالْيَوْمِ قطّ كَمَا قَالَ أمية بن أبي عائذ الهذلي[19]:

للهِ يَبقى على الأيامِ ذُو حِيَدٍ   بِمُشْمَخِرٍّ بهِ الظَّيَّانُ والآسُ

وأما "مِنْ" فهي تفيد معنى القسم، "ذلك أن بعض العرب يستعملها "مضمومة الميم أو مكسورتها" حرف قسم، ولا يكاد يجر إلا كلمة: "الله" نحو: منَ اللهِ لأقاومنَّ الباطل ويجب معه حذف الجملة القسمية، "فعلها وفاعلها""[20] .

ولم يرد حرفا اللام ومِن في القرآن، ولا في الحديث الشريف.

ثانيا: أفعال القسم

أفعال القسم الأصلية ثلاثة وهي: أقسم، وحلف، وآلى. فأما أقسم فقد تقدم معناها. وأما الحلف فأصله القطع والحدة، يقال سنان حليف، أي قاطع... فقولهم حلف على أمر أي قطع به، ثم اختص بشدة الفصل والجزم في القول. قال الحافظ ابن حجر: "وأصل اليمين في اللغة اليد، وأطلقت على الحلف لأنهم كانوا إذا تحالفوا أخذ كلٌّ بيمين صاحبه، وقيل: لأن اليد اليمنى من شأنها حفظ الشيء، فسمي الحلف بذلك لحفظ المحلوف عليه، وسمى المحلوف عليه يمينا لتلبسه بها" [21].على أن الحلف يكثر أن يقترن بالكذب، جاء في القرآن: {**وَيَحْلِفُونَ بِاللَّـهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ**} (التوبة 56)، ويغلب أن يكون مسنداً إلى المنافقين، كما في سورة التوبة.

وترى بنت الشاطئ أنّ القسم يغلب أن يكون في الأمر الصادق[22]، وخالفها في ذلك بعضُ الباحثين فرأى أن القسم والحلف مترادفان[23]، ونحن نميل إلى رأي بنت الشاطئ. وذهب بعضهم إلى أن القسم أبلغ من الحلف[24].

وأما الأليّة فمعناها الإقصار عن الأمر، فيقال الأليّ للمقصر العاجز عن الشيء، ثم جاء لترك الشيء... ثم تُوسِّع في معنى إلزام الشيء، سواء كان للترك أو الفعل، ولكنه أكثر في إلزام ما فيه شوب المضرة[25]. وفي التنزيل العزيز: {**وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ**}(النور22). ولكن في الآية الكريمة: {**لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**}(البقرة 226)، فإن معنى: الإيلاء في عرف الشرع هو اليمين على ترك وطء الزوجة[26].

ومما يؤدي معنى القسم من الأفعال: شهد، وعلم، ونشد، وسأل، وأوذم، وأكتع، ونذر، وصدق، وعمر، وعزم، ونحوها. ويلحق بها نحو: قسما، ويمينا، وحلفا، وعهدا، وحقا، فإنها، وإن كانت مصادر، إلا أنها دالة على فعل القسم، فالتقدير في قسما هو: أقسم قسما، وهذا ما يبرر إلحاقها بالأفعال. قال الأحوص الأنصاري[27]:

إنى لأمنحكَ الصدود، وإننى   قسما إِلَيْكَ، مَعَ الصدود، لأميل

لما قَالَ: إنى لأمنحك الصدود، وإننى إِلَيْك لأميل -علم أَنه مقسم، فَكَانَ هَذَا بَدَلا من قَوْله: أقسم قسما، وَاعْلَم أَن المصادر كَسَائِر الْأَسْمَاء، إِلَّا أَنَّهَا تدل على أفعالها[28]

ثالثا : أسماء القسم

وهي أسماء تستعمل في القسم وذلك نحو: أيمن، وما تفرع عنها، قال سيبويه: "هذا باب ما عمل بعضه في بعض، وفيه معنى القسم، وذلك قولك: لعمر الله لأفعلن، وايْمُ الله لأفعلن، وبعض العرب يقول: أيْمُنُ الكعبة لأفعلن، كأنه قال: لعمر الله المقسم به، وكذلك ايم الله، وأيمن الله" (29) .

المعاني البلاغية للقسم:

أحسن الفراهي وأجاد في بيان المعاني البلاغية للقسم بما لا مزيد عليه، ونحن هنا ننقل كلامه مختصرا، حيث قال:((في أسلوب القسم معان مفيدة للاستدلال ، مما يفتح عليه من البلاغة أبوابا، ويلقي عليه من المحاسن جلبابا، ونذكر هنا بعض تلك المعاني، وندلك على ما فيه من البلاغة.

الأول: هو إظهار التأكيد والجد في القول، كما ترى في قول المرسلين من النصارى حيث جاء في القرآن:**{قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَما عَلَيْنا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ }** (يس 16-17).

وقد علموا أن الحرَّ المهذَّب إذا أقسم على أمر فقد بالغ في إظهار الجد منه، ونفى عن نفسه الهزل، ولذلك كثر القسم في أوائل النبوة حتى تبين لهم جده.

والثاني: كون القسم إنشاء، وذلك يبهم طريق الإنكار على الخصم، فإنه إن شاء أنكر جواب القسم، لكونه خبراً، ولكن لا يسنح له أن ينكر نفس القسم، لكونه إنشاء، كما أنه لا يتوجه إلى إنكار الصفة مع أنهما في الحقيقة من الأخبار.

وربما يجمع أقسام القرآن هذين الخبرين ، كالقسم بالصافات صفا، فإن شرحتها رأيت فيها جملتين خبريتين، الأولى: إن هناك ملائكة صافون كالعبيد، والثانية: ما أدرج من القسم.

فإن كان ذلك مما ينتبه الخصم لإنكاره ، فتارة يصرف الخطاب إلى النهي كقوله تعالى: **{يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}**(يس 1-3). وتارة يحذف جواب القسم الذي يكون جملة خبرية. فحينئذ يكتفي بالمقسم به ، ويبادرهم بكلام آخر مؤيد لما حذف ، لكيلا يجد الخصم فرصة لتحويل الإنشاء إلى الخبر فينازع فيه، ولكي يجد الكلام فرصة فيه، فيستمع بعد القسم لما ينتظر جوابه، فيهجم عليه ما يؤيد الاستدلال المقصود من الكلام السابق، كقوله تعالى:**{ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ }**(ص 1-2). فاكتفى بالجملة الإنشائية، واجتنب الخبرية، وقد فرغ عنها بما ذكر في القسم من صفة القرآن، كأنه قيل:((قد شهد القرآن أنه لذكر ونصح لهم)). ثم ذكر من خصائلهم ما لا ينكرونها بل يباهون بها، وأشار إلى أن إنكارهم ليس إلا لحميتهم الجاهلية، وجدالهم بالباطل.

فأما إذا كان القسم مما لا ينكرونه لم يحذف الجواب، كقوله تعالى:**{ حم * وَالْكِتابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}**(الزخرف 1-3).

والثالث: إيجاز هذا الأسلوب للاستدلال، فإن اللفظ إذا قل يتراءى المعنى متجرداً عن حجبه، فيزيده تنويراً وتأثيراً، كأنه أرهف حده، وقرب بعده، وهذا مما يجعل الاستعارة أحياناً أبلغ من التشبيه. ولا حاجة إلى توضيح حسن الإيجاز فإنه مبسوط في كتب البلاغة.

والرابع: إشراك السامع في استنباط الدليل، وذلك مما يكسر سورة خصامه، فإنه إذا علم شيئاً بعد التأمل فرح به واهتز له، فإن المتكلم إذا جعل السامع منفعلاً محضاً أتعبه وصار كلامه عليه ثقلاً، وهذا إذا لم يخالف رأيه،

فأما إذا خالفه اشمأز منه وسد منه أذنه.

ومنه القسم الذي افتتحت به سورة الفجر، حيث أشهد بأمور تدعو الفكر إلى استنباط الدلائل على تدبير الله تعالى وتقديره وعدله.

ورب مستدلٍّ حاذقٍ يسوق المخاطب إلى الدعوى بسهولة من غير تسفيه رأيه، حتى يظن أنه هو الذي اهتدى إليها من قبل نفسه. وهذا مما يصير الكناية أحياناً أبلغ من التصريح.

والخامس: وضع الدليل في غير صورته، لكيلا يبادر المنكر إلى المخاصمة، وذلك غير معنى الإنشاء الذي مر آنفاً في الوجه الثاني، فإنه يسد باب الإنكار، وهذا إنما يذهل عن الخصام، لكونه غير الإنشاء تجده باقياً في صورة الخبر أيضاً.

فمثلاً إن حولت قوله تعالى: **{وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}**(العصر 1-2) وجدت بعد هذا التحويل من الإنشاء إلى الخبر أيضاً فرقاً واضحاً بينه وبين صريح الاستدلال. وهو أن تقول: إن الإنسان لفي خسر؛ لأن مر الزمان ينقص العمر، فإن هذا الاستدلال مع صحته وظهوره يدعو الخصم لحبه الجدل إلى الإنكار به. أو بالذي ينتج منه: وهو الاعتماد على الإيمان والعمل الصالح. فإنه سيقول: كلا، إن الإنسان لفي ربح عظيم، فإنه يشتري اللذائذ ويقتني المنى، بهذا العمر الذي لا بد أن يفنى. أو سيقول: كلا، فإنه إذ لا بد من البلى، فالتمتع بالشهوات أولى، كما قال الملك الضليل بن حجر القتيل:

تمتع من الدنيا فإنك فانٍ   من النشوات والنساء الحسان

ولا شك أن تلك حجة داحضة. ولكن إذا فتح باب الجدال، كثر القيل والقال. وكلما زدت إيضاحاً، ازداد الخصم جماحاً، فيحسن أحياناً أن تذهله عن وجه النزاع ، فإن للإنسان به ضراوة كضراوة السباع.

واعلم أن هذا الوجه والذي قبله، مبنيان على لطافة الأدلة في الأقسام، فإنه كما تصرفهم عن الإنكار والنزاع، فكذلك تنشطهم للفكر والاستنباط.

والسادس: ... ولا شيء من أساليب الكلام أصلح للتصوير من القسم. فإن الذي أقسمت به دعوته كالشاهد، فأوقفته بين يدي المخاطب متمثلاً.

فلما أراد الله أن يوشي عنوان السور بألوان الصور بدأها بأقسام خاصة: فترى أحياناً صورة أمر واحد كالقلم الكاتب، والنجم الثاقب، والخيل العاديات ... وتنظر أخرى إلى صور عديدة يضمها أمر جامع بينها كالتين والزيتون وطور سينين والبلد الأمين، مما يدل على أحوال أو أحداث يستدل بها على مسألة مهمة.

ولا منزلة عند العقل لهذه التصاوير لولا أن فيها دلائل على أمور عظيمة. وهذا لرعاية جانب المستمع لكيلا ينفر، فيسد أذنيه. ومن كمال التبليغ وإتمام الحجة تليين القول وتأليف القلب.

والسابع: تقديم الدليل على ذكر الدعوى، فيلقي أولاً على الخصم أمراً يوجهه إلى سمت لا بد أن يجلبه إلى الدعوى، ولكن المنكر إذا علم من قبل ما تريد الاستدلال عليه أخذ سمتاً آخر، وتنكب عن الوجه الصحيح. فإذا لم تذكر الدعوى يوشك أن يتوجه إلى صراط مستقيم. فإذا سار على قصد السبيل قدته إلى آخر النتيجة. ومثال ذلك كل ما ذكرنا في الوجه الرابع والخامس.

والثامن: كون القسم من جوامع الكلم. فإن المقسم به لا يذكر معه جهة الاستدلال. فلو ضم به جهة خاصة كان دليلاً واحداً، ولكن الشيء الواحد يجمع معاني كثيرة ووجوهاً مختلفة. وللمتوسم فيه دلائل شتى.

وهذا الأمر مشترك في ما ذكر من الأمور الدالة على أسلوب الآية، فجعل شيئاً واحداً موضعاً لاستنباط دلائل كثيرة. كما قال تعالى: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}**(لقمان 31)اهـ[30].

المبحث الثاني : الألفاظ والتراكيب المستعملة في القسم النبوي ودلالاتها البيانية

كان النبي عليه السلام يؤكد بالقسم ما يستحق المقام تأكيده من المعاني، وكانت ألفاظه فيه متفاوتة القوة مع تفاوت المثيرات والدوافع.

وقد أورد الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الأيمان، بابا بعنوان: كيف كانت يمين النبي عليه السلام، ذكر فيه عشرين حديثا أقسم فيها النبي عليه السلام، وقد ذكر في هذا الباب أربعة ألفاظ وتراكيب استعملها النبي عليه السلام في أقسامه، وقد استقرأنا مئات الأحاديث في الصحيح وغيره فلم نجد تركيبا غير هذه التراكيب الأربعة، عدا واحدا فاته مع أنه أخرج حديثين في صحيحه يشتملان عليها.

أما الألفاظ والتراكيب التي أحصاها البخاري في الباب المذكور فهي خمسة:

الأول: "واللهِ"، ونحوها " وايْمُ الله".

الثاني: "لا ومقلِّبِ القلوب".

الثالث: "والذي نفسي بيده"، ونحوها " والذي نفس محمد بيده"، بعضها مُصَدَّر بلفظ لا، وبعضها مُصَدَّر بلفظ "أمَا".

الرابع: وربِّ الكعبة.

وأما الصيغة التي لم يذكرها في هذا الباب فهي القسم بلفظ: والله الذي لا إله غيره، والذي لا إله إلا هو، ونحوها.

فتحصل من ذلك خمسة ألفاظ لقسم النبي عليه السلام، سنفرد كل لفظ ببيان معناه، ودلالته البيانية، مع ذكر مثال عليه، وذلك على التفصيل الآتي:

1- "واللَّهِ"

القسم بلفظ الجلالة هو أعلى صور القسم، وأعظم تراكيبه، لما فيه من تصريح بالاسم الجليل، فالقسم به هو قسم بالله تعالى على الحقيقة، فلذلك تعتري الإنسان رهبة عند ذكر هذا الاسم العظيم، لا توجد في غيره من الأسماء الحسنى.

والدلالة البيانية في هذا القسم مستفادة من معنى هذا الاسم الجليل -الذي لم يشارك الله تعالى في التسمي به أحد من المخلوقين- حتى قال بعض النحاة إنه علم جامد على الذات الإلهية، وهو مشتق عند غيرهم من ألِه يألَه بمعنى عبد، فالله تعني المعبود[31]، وكأنّ الحالف بهذا اللفظ يقول: أحلف بمن أتوجه إليه بعبادتي، ففيه استحضار معنى توحيد الألوهية، أعلى مقامات التوحيد، لكونه يتضمن توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

والقسم بلفظ الجلالة أكثر ألفاظ القسم انتشاراً في الحديث الشريف، وقد ورد القسم بلفظ الجلالة مسبوقاً بالواو في كثير من الأحاديث، وقفنا على نحو من ثلاثين منها في صحيح البخاري، كان جواب القسم في معظمها جملة خبرية، وفي بعضها جملة إنشائية، ومنه قول النبي عليه السلام للمسلمين عندما استعجلوا النصر في مكة : ((**والله** ليتمنّ هذا الأمرُ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه،

ولكنكم تستعجلون))[32].

كما كان النبي عليه السلام يقسم بلفظ الجلالة مسبوقا بكلمة ((أيم))[33]، فمن ذلك: عن عائشة رضي الله تعالى عنها:((أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله عليه السلام. فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حب رسول الله عليه السلام فكلمه أسامة، فقال: رسول الله عليه السلام: أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد،**ايْمُ الله** لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))[34].

2- "لا ومقلب القلوب".

جاء في الصحيح عن عبد الله بن عمر قال: "كثيرا مما كان النبي عليه السلام يحلف: لا ومقلب القلوب". وفي رواية: "أكثر ما كان النبي عليه السلام يحلف: لا ومقلب القلوب)). وفي رواية: ((كانت يمين النبي عليه السلام: لا ومقلب القلوب"[35].

ومما يشكل على هذا الحديث أنه بتتبع أقسام النبيعليه السلام لم نجد يمينا واحدة أقسم بها النبي عليه السلام بهذا اللفظ في حديث كامل، فضلا عن أن تكون أكثر ما كان النبي عليه السلام يحلف به، والعجب أن الحافظ ابن حجر لم يتعرض لحل هذا الإشكال، ولم نستطع حتى الآن أن نجزم بوجه تخريجه، فالله أعلم بالصواب.

أما معنى العبارة فقال الراغب: "تقليب الشيء : تغييره من حال إلى حال، والتقليب: التصرف، وتقليب الله القلوب والبصائر: صرفها من رأي إلى رأي"[36]. وَيَقْتَضِي ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يُكْثِرُ الْقَسَمَ بِهِ، وَلَعَلَّهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –كَانَ يُوَاظِبُ عَلَى ذَلِكَ تَنْبِيهًا عَلَى مَا يَنْفَرِدُ بِهِ تَعَالَى مِنْ تَقْلِيبِ الْقُلُوبِ مِنْ الرِّضَا بِالشَّيْءِ إلَى الْكَرَاهِيَةِ، وَمِنْ الْعَزْمِ عَلَى الْفِعْلِ إلَى الْعَزْمِ عَلَى التَّرْكِ"[37].

وقال الحافظ ابن حجر :((وقوله لا: نفى للكلام السابق ، ومقلب القلوب: هو المقسم به، والمراد بتقليب القلوب: تقليب عراضها وأحوالها، لا تقليب ذات القلب))[38]. وقال العيني: وَبعد "لا" يقدر نَحْو: لَا أفعل أَو لَا أَقُول وَحقّ مُقَلِّب الْقُلُوب"[39].

وقال الحافظ أيضا: "معناه تقليب قلب عبده عن إيثار الإيمان إلى إيثار الكفر، وعكسه"[40].

وأما الدلالة البيانية التي نلحظها في هذا التركيب فهي مستفادة من المعنى الذي يستحضره الحالف والسامع عند القسم بهذه العبارة ؛ فإن القلب هو سيد الأعضاء، وهي تبع له، وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام: "ألا وإن في الجسد لمضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"[41]، وما سمي القلب بهذا الاسم "إلا لتقلبه في الأمور. كما قال قائلهم:

ما سمي القلب إلا من تقلبه فاحذر على القلب من قلب وتحويل"[42].

فإذا كان القلب بهذه المكانة ، فإن استشعار كونه بيد الله سبحانه، وأنه يقلبه كيف يشاء يورث في نفس الحالف هيبة وتعظيما لله تعالى، فلا يستطيع أن يحلف به كاذبا، كما يترك في نفس السامع أثرا بالغا في تصديق الحالف.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله عليه السلام يقول: "إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء ، ثم قال رسول الله عليه السلام: اللهم مصرِّف القلوب،

صرِّف قلوبنا على طاعتك"[43].

3- "والذي نفسي بيده"، "والذي نفس محمد بيده"، "والذي نفس أبي القاسم بيده".

هذه ثلاثة تراكيب متشابهة، يتألف كل منها من واو القسم، ثم المقسم به –وهو الاسم الموصول بجملة اسمية بعده– ثم يأتي بعد ذلك جواب القسم أو المقسم عليه في الجملة التالية.

وقد يكون القسم بهذه الصيغة مما لم يسبق إليه عليه السلام، فلم يستعمل أحد هذه الصيغة في القسم قبل النبي عليه السلام فيما نعلم، وأما بعده فقد وردت على لسان بعض الصحابة اقتداء به عليه السلام.

والدلالة البيانية المستفادة من هذا التركيب تؤخذ من الحالة النفسية التي يستحضرها المقسم عند استخدام مثل هذه الصيغة في القسم، فلا شك أن الحالف إذا استحضر عند قسمه أن نفسه بيد الله تعالى، فإن ذلك دليل صريح على صدقه فيما يحلف عليه، فمثل هذا التركيب لا يستخدمه من يحنث في يمينه، مما يؤثر في نفس السامع، ويجعله يتلقى الخبر بالقبول .

وقد روي عن أبي سعيد الخدري قال: "كان رسول الله عليه السلام إذا حلف واجتهد في اليمين قال: **لا والذي نفس أبي القاسم بيده**"[44].

فهي يمين مجتهد في يمينه، واثق من صدقه، يريد أن يرفع مستوى الإيمان عند سامعه من مستوى مجرد التصديق إلى درجة اليقين. ولذا كان النبي عليه السلام يستخدم هذا القسم عندما يخبر أصحابه وأمته عن أمر مغيب عنهم ، فيه ترغيب بعبادة، يكون ثوابها مخالفا للمعهود.

فمن ذلك أن رسول الله عليه السلام قال في فضل الاستشهاد في سبيل الله تعالى:" **والذي نفسي بيده** لا يَكْلَم أحد في سبيل الله –والله أعلم بمن يَكْلَم في سبيله– إلا جاء يوم القيامة واللونُ لونُ الدم، والريحُ ريحُ المسك"[45].

وقال عليه السلام في فضل الصوم: "**والذي نفس محمد بيده** لخلوفُ فمِ الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك"[46].

فأن ينقلب الريح المنتن في الدنيا – ريح الدم المسفوح على الأرض، وريح فم الصائم – أن ينقلب أطيب من المسك ، فهذا مما لا تتصور العقول ابتداء، فجاء هذا القسم تأكيدا على أنه حق.

4- "ورب الكعبة".

القسم برب الكعبة المشرفة مما عهده العرب قبل الإسلام، فقد كانوا يعظمون البيت الحرام، ويحفظون حرمته، ويقسمون به تعظيما له وتشريفا، قال زهير بن أبي سلمى[47]:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

وقد استخدم النبي عليه السلام هذا القسم بعد الإسلام فيه مراعاة لما استقر في نفوس العرب من تعظيم للبيت قبل الإسلام، وهذا مما لا شك مما يزيد من يقينهم بصدقه. ولكنه أضاف إليه كلمة "رب" فصار: ورب الكعبة، وفي ذلك توجيه للمسلمين بأن يتوجهوا بالقسم إلى الله وصفاته ، دون المخلوقات، لإعظام الله وحده ، وللتذكير بالخالق، ولصرف التقديس عن الكعبة. قال الحافظ: وإضافة الربوبية للمخلوقات المعظمة تنويها بتعظيمها[48].

وقد روي أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ عليه السلام فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ، وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ، " فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ عليه السلام إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَيَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شِئْتَ"[49].

ومن ذلك ما جاء عن أبي ذر قال: انتهيت إلى النبي عليه السلام وهو في ظل الكعبة يقول:"هم الأخسرون **ورب الكعبة،** هم الأخسرون **ورب الكعبة،** قلت: ما شأني، أَيُرى فيّ شيءٌ؟! ما شأني؟! فجلست إليه وهو يقول – فما استطعت أن أسكت، وتغشّاني ما شاء الله– فقلت: من هم بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: الأكثرون أموالا، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا"(50).

5- "والله الذي لا إله إلا هو"، "والذي لا إله غيره".

هذا القسم جاء على صيغتين –كما هو واضح من عنوان المطلب– فمرة تكوّن تركيبه من واو القسم، ثم المقسم به، وهو اسم الجلالة مقرونا بوصف التوحيد، ومرة تكوّن من واو القسم، ثم المقسم به –وهو الاسم الموصول بجملة التوحيد.

وعلى كلا الحالين، ففي هذا التركيب قسم بتوحيد الألوهية، الذي يمثل عنوان الرسالة الإسلامية، واستحضار هذا التوحيد عند القسم يعطي اليمين مزيدا من التوكيد على صدق المقسم، وصحة دعواه.

ومن أمثلته في القسم النبوي ما جاء في قصة إسلام عبد الله بن سلام –حبر يهود– حيث قال رسول الله عليه السلام:" يا معشر اليهود، ويلكم اتقوا الله ، **فوالله الذي لا إله إلا هو** ، إنكم لتعلمون أني رسول الله حقا، وأني جئتكم بحق فأسلموا. قالوا: ما نعلمه"(51).

لطيفة: عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال لي رسول الله عليه السلام:" إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت عليّ غضبى. قالت: فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا وربِّ محمد، وإذا كنت غضبى قلتِ: لا وربِّ إبراهيمَ، قالت: قلت أجل والله يا رسول الله ، ما أهجر إلا اسمك"(52).

في هذا الحديث ما يدل على فضل عائشة رضي الله عنها وفطنتها، حيث سلكت في التعبير عما يكون في نفسها من غضب الزوجات مسلكا لطيفا، إذ عدلت في قسمها عن اسم رسول الله عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام، واختارته دون غيره من أنبياء الله تعالى، لما تعلم من صلة رسول الله عليه السلام به، ومع خفاء هذا المسلك اللطيف، ما كان ذلك ليغيب عن ملاحظة المصطفى عليه السلام، مما يدل على ذلك الحس الزوجي المرهف الذي كان يعامل به رسول الله عليه السلام أزواجه.

المبحث الثالث: أغراض القسم النبوي

تمهيد:

إن كلام رسول الله عليه السلام ليس محلا للشك عند أصحابه، رضوان الله تعالى عليهم، فهم يقطعون بصدقه عليه السلام في كل قول يقوله، ولذا فهو لا يقسم من أجل أن يُصدَّق، وقد كان قبل الرسالة يوصف بالصادق الأمين، فما وجه القسم منه عليه السلام إذا؟

وبالتأمل في أقسامه عليه السلام نجد أن له أغراضا مهمة، ومعاني سامية، يريد تحقيقها من خلال القسم، فليس قسمه عليه السلام من قبيل لغو الكلام–وحاشاه– وما كان ليقسم إلا لأمر يحتاج أن يقسم عليه فعلا، فما هي أغراض القسم النبوي؟

بداية، لا شك أن القسم من المؤكدات اللفظية، كان رسول الله عليه السلام يؤكد به ما يستحق المقام تأكيده من المعاني، وقد رأينا فيما سبق أن ألفاظه في القسم متفاوتة القوة مع تفاوت المثيرات والدوافع، ولكن لا يقف الأمر بالقسم عند مجرد التأكيد، بل يتجاوز ذلك إلى معان أخرى، أو بعبارة أخرى إن تأكيد الكلام لا يكون للمنكِر

فحسب، فقد يخرج الكلام عن مقتضى ظاهره، فينزل غير السائل منزلة السائل، فيستحسن تأكيد الكلام له، وينزل غيرُ المنكِر منزلةَ المنكِر، فيؤكد له الكلام بأكثر من تأكيد[53].

غير أن هذا الخروج عن مقتضى الظاهر ليس من قبيل العبث، وإنما هو من قبيل الحاجة إليه عند تغير مقام الكلام وسياقه، وقد قيل قديما:((لكل مقام مقال)).

قال الحافظ ابن حجر عند شرح حديث: فوالله لا يمل الله حتى تملوا:((فيه جواز الحلف من غير استحلاف، وقد يستحب إذا كان في تفخيم أمر الدين ، أو حث عليه، أو تنفير من محذور))[54].

وبعد تتبع كثير من أقسام رسول الله عليه السلام وجدنا للقسم النبوي عدة أغراض، نذكر منها:

أولاً : التحذير من مخالفة الشرع مع توافر دواعي الهوى.

لا يحتاج المؤمن إلى تحذير شديد من مخالفة أوامر الله تعالى في العامّ الأغلب من النواهي الشرعية، وذلك لأن عنده من الإيمان ما يردعه عن ملابسة المحرم، ولكن إذا توافرت أسباب الهوى، وصار المؤمن قريبا من مواقعة ما نهى الله عنه ، فإنه حينئذ يحتاج إلى مزيد تحذير، بإضافة مؤكدات على النهي، ويصور ذلك هذا الحديث.

عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن قريشا أهمهم شأنُ المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومنْ يكلم فيها رسولَ الله عليه السلام؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامةُ بنُ زيد ، حِبُّ رسول الله عليه السلام، فكلمه أسامةُ ، فقال رسول الله عليه السلام:((أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، **وايْمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**))[55].

إن الإسلام حين شرع الحدود إنما شرعها لحفظ الضروريات التي لا تستقيم حياة الإنسان دونها، فالحدود زواجر تمنع المعتدين من التطاول على حقوق الناس؛ لذلك فإن التهاون في تطبيقها يعد خطرا على المجتمع المسلم بأسره، ومن أجل ذلك حرم الإسلام الشفاعة في إقامة الحد على المعتدي.

((ومن جهة أخرى فإن نزاهة الإسلام وعدالته، تمنع أن تقام الحدود على بعض الناس دون بعض، وأن هذا الداء كان سبب هلاك الأمم السابقة.

ومن هنا نقول: إن الحديث جاء ليؤكد هذه الحقيقة التي ذهل عنها أسامة ومن طلب منه أن يشفع لهذه المرأة السارقة، فاستحق هذا الذهول أن يقسم النبي عليه السلام على أنه لا شفاعة في حدود الله لجاه أو مال أو شرف، ولا شفقة على المعتدي على حدود الله تعالى، ولا نظر إلى صلة دنيوية يطغى على إقامة ما أوجب الله تعالى أن يقام لسلامة دينه ، ولكرامة المؤمنين، وصيانة حقهم.

وبين ذلك بالافتراض المبني على المبالغة في تقرير هذه الحقيقة ، فصلةُ البنوة بين محمد عليه السلام وبين فاطمة، لا تحرك رأفته عليه السلام ليرحمها من قطع اليد حين يوجب الإسلام قطعها، ولا أكرم من محمدعليه السلام حاكما، ولا من فاطمة بنت محمدعليه السلام محكوما عليه، فسواهما أولى بالحذر من المخالفة.

ويلمس القارئ أن الانفعال قد بلغ ذروته حين نطقه عليه السلام بهذه العبارة، وأنها بلغت حدا جازما فاصلا يُسكِتُ كل شفيع إلى يوم القيامة، وإتباع الاسم العلم (فاطمة) بالبيان له قيمة كبيرة في تقرير مضمون الكلام، فهو لا يدع للشك مجالا في تحديد أعلى صلة بين الحاكم والمحكوم عليه ، ففيه لفظُ البنوة المضافة على الالتفات إلى

الاسم الظاهر ((محمدعليه السلام)) دون ضمير المتكلم؛ لأنه أشد تحديدا لمدلوله؛ لأنه في مقام الترهيب والمهابة، على العكس من نسبة فعل القطع إلى الضمير؛ لأن ذلك أبلغ في الدلالة على مباشرة الفعل، وأسرع في حسم الموقف))(56).

ونحن نلاحظ هنا أن القسم لم يأتِ منه عليه السلام ابتداء، وإنما كان بسبب حادثة رأى فيها غفلة من بعض المسلمين، استدعت منه أن يقسم بغرض التحذير من مخالفة الشرع، والترهيب من خطر الشفاعة في حدود الله تعالى، والتمييز بين الناس على أساس العصبية.

ثانياً : الإخبار بأمر غيبي، وتأكيد حقيقة مخالفة للظاهر المتبادر.

تتفاوت أخبار الغيب في قوتها، فمنها ما يسهل على النفس الإيمان به، ومنها ما يمكن أن يدخل الشك فيه، وذلك عندما يكون الأمر خارجا عن المألوف، ولا تستطيع الحاسة البشرية أن تصل إليه، وذلك كرؤية بعض ما في الغيب، فيأتي دور القسم ليؤكد إمكانية حدوث هذا الأمر.

فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي عليه السلام قال: ((إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني **والله** لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أُعطيت مفاتيحَ خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني **والله** ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها))(57).

في الحديث قَسمان: الأول– القَسم على بعض أمور الغيب من رؤية الحوض، والحصول على مفاتيح الأرض. والثاني– القَسَم على أن خوف الرسول عليه السلام على أمته من التنافس على الدنيا، أكبر من خوفه عليها من الشرك.

((فالرسول عليه السلام يؤكد لنا هذه الأخبار بأمرين هما القسم و(إنّ) ؛ وما هذا التأكيد إلا لنضعها أمام أعيننا موضع المسلَّم المجزوم به ، برهانا منه عليه السلام على نبوته، وثقة من نفسه بها قبل أن يأتي زمانها ، وإلقاء بهذه الثقة على رؤوس القرون المقبلة، لتشهد آخر الزمان ما شهد أوله من دلائل صدقه عليه السلام ووثائق رسالته.

فهو عليه السلام يخبر فيه بأمر يراه هو بعينيه، ولا يراه غيره ، فاستحق أن يقسم عليه ليدفع عن خبره **الشك، أو توهم المجاز والمساهلة**، وأكده بالقسم و(إ نّ) تقريراً له في نفوس الصحابة، وعصمة لأفكارهم أن يلمَّ بها طائف من الشيطان، كما أكد باليمين و(إن)، نفيَ خيفتِه شركَ المؤمنين بعده، لبعد حصوله، وخص خوفه عليه السلام بالتنافس في شهوات الدنيا وفتنتها.

وهكذا يبين الرسول عليه السلام أن أمورا نستهين بها، ربما كانت أضرَّ علينا من أمور نعرف ضررها، ونفر منها بديننا ، فيؤكد عدم خوفه علينا هذه الظاهرة المكشوفة الضرر، ويجعل الأخرى مناط خيفته ، لخفاء أمرها على الناس، ليقفوا دائما من أحكامهم على أعمالهم **موقف الحيطة والحذر** فيغنموا خير الحياة ويسلموا من شرها))(58).

فالحاجة إلى القَسَم هنا كانت لأمرين :

أحدهما: ما يحمله الحديث من إخبار عن عالم الغيب، مما لا يدركه غير النبي عليه السلام . **وثانيهما:** ما يقرره من أمر مخالف للظاهر، فخطر التنافس على الدنيا يبدو في الأعين صغيرا إلى جانب الشرك ، فجاء الحديث ليصوب هذا الفهم، بأن جعل خطر التنافس على الدنيا أكبر من خطر الشرك، لا لأن التنافس على الدنيا أعظم

ذنبا من الشرك؛ وإنما لأنه من الصعب على من خالطت بشاشة قلبه التوحيد أن يعود في الشرك، فلا يخاف عليه من هذا الجانب، وإنما يخاف عليه من تسويل الشيطان بإغرائه في التنافس في الدنيا، مما اقتضى أن يُنزِل غيرَ المُنكِرِ منزلةَ المنكرِ، لخفاء الأمر المراد تحقيقه، ودقة مسلكه، والله أعلم.

ثالثاً : الحث على السعي في طلب الآخرة، وتقديمه على المصلحة الدنيوية.

من بدهيات الإيمان، أن المؤمن ساع في طلب الآخرة، ولكن عندما تعرض الدنيا زينتها وزخرفها أمامه، فإنه يحتاج إلى ما يوقظه من غفلة قد تصيبه، فكان من دواعي القسم النبوي لفت نظر المؤمن إلى حقيقة قد تغيب لظرف ما عن عينه وفكره ، وهي أنه عليه أن يقدم أجر الآخرة إلى ما هو أهم من المشتهيات الدنيوية.

ومن أمثلة ذلك ما رواه سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه، سمع رسول الله عليه السلام يقول يوم خيبر: ((لأعطين الراية رجلا يفتح الله على يديه ، فقاموا يرجون لذلك أيهم يعطى، فغدوا وكلهم يرجو أن يُعطى، فقال: أين علي؟ فقيل: يشتكي عينيه، فأمر، فدعي له، فبصق في عينيه، فبرأ مكانه حتى كأنه لم يكن به شيء، فقال: نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال: على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، **فوالله** لأن يهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم))(59).

في هذا الحديث الشريف يقسم النبي عليه السلام على أن أجر هداية رجل واحد، خير للمسلم من الحصول على حمر النعم؛ وقد لا يحتاج هذا الأمر إلى تأكيد بالغ ، فهو واضح لكل مسلم؛ لأن أجر الهداية يحصل عليه المسلم في الآخرة ، بخلاف حمر النعم التي هي من زينة الدنيا، وما كان من الآخرة فهو أعظم –ولا شك– من الدنيا بأسرها.

ولكن بالتأمل في سياق الحديث تبدو الحاجة إلى القسم ملحة؛ لأن السياق في الجهاد، حيث يكون المقاتل حريصا على قتل عدوه، ونفسه طامحة بالنصر للحصول على الغنائم، فهذا الحال يجعل غياب تلك الحقيقة ممكنا وسهلا، فأكد رسول الله عليه السلام الأمر بالقسم، تنبيها على أن الهدف من الجهاد في الإسلام هو الدعوة إلى الله عز وجل، وليس الهدف منه سفك الدماء وقتل الأنفس.

ولاحظ تلك الدقة البالغة في اختيار لفظ (حمر النعم) في هذا المكان، ومعلومة مكانة الإبل عند العرب، فهي أنفس الأنعام ثمنا، وأفضلها عندهم على ما سواها؛ وكأنه يقول له ليكنْ همُّك في هداية الناس أعظمَ من همِّك في الحصول على الغنائم.

فالقَسم هنا جاء تنبيها على حقيقة إيمانية مهمة، وهي الحرص على دعوة الناس إلى الإسلام، فجاء الحديث **ليحض** عليها، **ويرغِّب** بها في وقت يكون المسلم غافلا عنها.

رابعاً : الحث على تغيير ما استقر في النفوس من موروثات غير صحيحة.

تألف النفس ما توارثته عن الآباء والأجداد، سيما إذا تعلق هذا الموروث بأمر ديني، فإنه يأخذ في النفس بعد القداسة، وحينئذ لا بد من أجل زحزحة هذه الفكرة تقليدية المتأصلة في النفوس من مؤكدات لفظية، ومؤكدات معنوية.

وقد كان رسول الله يجعل من نفسه قدوة لغيره في هذا، ويشفع ذلك باليمين، كما روى أبو موسى الأشعري قال: أتيت رسول الله عليه السلام في نفر من الأشعريين، فوافقته وهو غضبان، فاستحملناه، فحلف ألّا يحملنا، ثم قال: ((**والله** إن شاء الله لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيرا منها، إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها))(60).

فإن مما يشق على المسلم أن يحنث في يمينه، ولكن ماذا لو أقسم على أمر ثم ظهر له أن الخير على خلافه؟ لا شك أنه سيندم على يمينه، ولكنه في الوقت نفسه يصعب عليه أن يرجع عن يمينه، فالنفس هنا تتنازعها رغبتان، الرغبة في فعل الخير، الذي حال يمينه بينه وبين فعله، والرغبة في إمضاء اليمين وعدم الحنث به.

وتخليصا للمؤمن من هذه الحيرة وهذا التنازع، جاء هذا الحديث ((ليؤكد فيه عليه السلام عزمه فعل الأفضل من الأمرين ولو حلف أن يفعل المفضول، ويبين أن اليمين على مثل ذلك ينبغي التحلل منها بالكفارة، ليتخلص المؤمن إلى ما هو أجدر به وأفضل، وقد استثنى بقوله (إن شاء الله) تأدبا واعتزازا بمشيئة الله، ليلطف شدة الحزم التي تدل على كمال الثقة في النفس، وكأنه يقول: هذه نيتي الأكيدة ومشيئة الله تحرسها))[61].

وعليه تبدو الحاجة إلى اليمين هنا لدفع ما لا تميل إليه النفس من الحنث في اليمين، وتدرك هذا جيدا عندما تجد أن بعض الناس يصر على إمضاء يمينه مع إدراكه بأن هذه اليمين كانت خطأ، وأن الخير على خلافها، كمن يحلف أن لا يزور فلانا أو لا يكلمه، وعندما يأتي بعض أهل الخير إليه لمحاولة الإصلاح، يرفض شفاعتهم، بحجة تلك اليمين التي أقسم بها، متذرعا بأن عدم الحنث باليمين هو التقوى، فجاء الحديث لمثل هؤلاء، يضرب فيه الرسول عليه السلام مثلا على نفسه–وهو أتقى الناس لله تعالى– أنه لا يمنعه يمينه من الرجوع للحق وفعل الخير.

فالغرض من القسم النبوي هنا هو حمل الأمة على فعل الأفضل، وعدم الإصرار على الخطأ، مع توفر الدواعي التي من شأنها حمل الناس على عدم الرجوع عن الخطأ، والله أعلم.

خامساً : غرس اليقين ودفع اليأس عن النفس مع توافر دواعي الإحباط والقنوط.

من أغراض القسم دفع ما يرى الإنسان من إحباط في كل مكان، ودحض هذا المحسوس بغرس اليقين والأمل في النفوس، وهو الأمر الذي تصعب مهاجمته بل الاقتراب منه، وخاصة إذا كان ما يخبر به من بالغيبيات التي تبدو في الظاهر متناقضة مع الواقع المرئي.

ومثاله ما روى خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله عليه السلام وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: ((قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، **والله** ليتمنَّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون))[62].

يَعِدُ رسول الله عليه السلام أصحابه في هذا الحديث بالتمكين في الأرض لهذا الدين وأهله، حتى يحل الأمن عليهم في جزيرة العرب كلها، وأكد وعده هذا بالقسم، فما هي الغاية من القسم هنا، مع إيمان الصحابة بصدقه؟

إن المتأمل في سياق الحديث، يرى أن هذا الوعد الكريم قد صدر عنه عليه السلام قبل الهجرة، مما يعني أنه صدر في وقت كان يعيش فيه المسلمون حالة ضعف وهوان، ناهيك عن الخوف والرعب، بحيث كان أحدهم لا يأمن على نفسه في بيته، وعليه فإن مسألة قيام دولة إسلامية تملك جزيرة العرب كلها يعد حديثا أشبه بالخيال والأحلام، ومحل إنكار وشك، فأراد عليه السلام أن يؤكد الخبر بما يدفع هذا الوهم، ويصبغ عليه صبغة الحقيقة الواقعة، التي لا مجال فيها للشك والتردد، بحيث يدفع عن النفوس أي وسوسة يمكن أن تعرض لها حيال هذا

الوعد الكريم؛ فكان القسم الشريف مراعاة للحال والواقع، الذي لا يحمل ظاهره مبشرات بتحقق هذا الوعد الكريم.

سادساً : دفع الشك عن الأخبار التي يوهم ظاهرها خلاف المتبادر من أول وهلة.

إذا أخبرت بأمر موافق للظاهر فإنك لا تحتاج إلى ما يؤكد حقيقة وقوعه، ولكن إذا كان الخبر مخالفا للظاهر المألوف، والواقع المحسوس فإن قبوله يصعب على النفس، والإيمان به عرضة للشك، وهنا نحتاج إلى استخدام القسم في سبيل التأكيد على صحة الخبر.

من ذلك ما رواه أبو كبشة الأنماري أنه سمع رسول الله عليه السلام يقول: ((ثلاثة **أقسم** عليهن، وأحدثكم حديثا فاحفظوه، قال: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزا، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر))[63].

يقسم رسول الله عليه السلام في هذا الحديث على ثلاثة أمور يبدو للناظر في أول وهلة أن الواقع هو خلاف ما هو مقسم عليه، فالمتبادر إلى الذهن أن الصدقة تنقص المال، وأن التواضع فيه ذلة واستكانة، وأن سؤال الناس باب من أبواب الرزق السهل.

ولكن بصيرة المؤمن الذي ذاق حلاوة الإيمان ترشده إلى خلاف هذا الظاهر، فبالنسبة للقضية الأولى فإن المؤمن يوقن بأن المال لا خير فيه إن لم يكن مباركا، وأن قليل المال المبارك فيه خير من كثيره بلا بركة، ومن هنا جاءت تسمية الصدقة بالزكاة، التي تحمل معنى الطهر والنماء، فالصدقة في حقيقة الأمر إنما هي تطهير للمال من الخبث، فنحن حينما نتصدق بالمال الذي رزقنا إياه الله تعالى، فإننا في واقع الأمر نعمل على تطهيره مما شابه من حرام ، قد يكون سببا في محق المال كله، ألا ترى إلى الذهب إذا خلص من الشوائب غلا ثمنه، فقليل من الذهب الخالص خير من قنطار من الذهب المشوب بالتراب والشوائب.

ثم إن المؤمن يوقن أن المال الذي يتصدق به سيعوض خيرا منه، وأن الصدقة سبب في الزيادة من الرزق؛ لأنه يتعامل مع أكرم الأكرمين الذي يقابل الحسنة بخير منها، وإلى هذا يشير قوله تعالى: **{مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}** (البقرة261) وقوله سبحانه: **{ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}**(الروم39).

وأما التواضع والعفو عند المقدرة فإنه من شيم الكرام، وإن الكريم عندما يعفو عن الناس فإن الله تعالى يرفعه في أعينهم، وإلى هذا يشير قول الله تعالى: **{وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}**(الشعراء:215).

وأما سؤال الناس من غير حاجة فإنه سبب في غضب الله ومقته، وسبيل إلى تكسب غير مشروع، لذا فإن الله تعالى يعاقب فاعله بأن يمحق بركة ماله، مما يزيده فقرا.

ومن هنا فقد جاء القسم الشريف مراعاة لما هو متبادر إلى الذهن لأول وهلة، ليزيل أي شك تجاهها، والله أعلم.

سابعاً : مقابلة اليمين باليمين، والتأكيد على عدم صحة ما استقر في نفس المخاطب.

ثمة ظاهرة لغوية بارزة في الحديث الشريف، وهي أن الذي يقسم يقابله المتحدث بالقسم، حتى يتوازى الكلام، وحتى يكون الكلام متساويا في درجة التوكيد.

ومن جهة أخرى فإن بعض الأفكار المستقرة في النفس، نتيجة كثرة المخبرين، تجعل الحاجة ماسة إلى استخدام القسم لبيان الحكم فيها، وقد شاع أن رسول الله يريد أن يتزوج ربيبته حتى استقر ذلك الخبر في نفوس أزواج، فاحتاج رسول الله للقسم لنفي هذه الإشاعة التي أخذت من النفوس مأخذها.

فعن أم حبيبة قالت:((قلت: يا رسول الله، انكح أختي بنت أبي سفيان، قال: وتحبين؟ قلت: نعم، لست لك بمخلية، وأَحَبُّ من شاركني في خيرٍ أختي، فقال النبي عليه السلام : إن ذلك لا يحلّ لي. قلت: يا رسول الله، فوالله إنا لنتحدث أنك تريد أن تنكح درة بنت أبي سلمة، قال: بنت أم سلمة؟ فقلت: نعم، قال: **فوالله** لو لم تكن في حجري ما حلّت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن عليّ بناتكن، ولا أخواتكن))(64).

موضوع الحديث ذكر بعض من يحرم على الرجل نكاحهن، وهن أخوات الزوجة وبناتها، والمحرمات من الرضاع.

ويبدو أن هذا الحديث كان قبل أن تستقر هذه الأحكام وتُعلم لدى الناس، بدليل طلب أم حبيبة من الرسول عليه السلام أن يتزوج أختها، وبدليل ما شاع من أن الرسول عليه السلام يريد أن ينكح درة ابنة زوجته أم سلمة، ولو كانت هذه الأحكام مستقرة ومعلومة لدى الناس، ما كان هذا الطلب ليكون، وما كان لتلك الإشاعة أن تكون.

ويبدو أن تلك الإشاعة قد وقعت في نفوس أزواجه موقع الظن الشديد القريب من الجزم، بدليل أن أم حبيبة أقسمت قبلُ على هذا الأمر، واستقراره في نفوسهن، فأراد عليه السلام أن يدفع هذا الظن الشديد من نفوسهن، فقابل القسم بقسم مثله، ودلل عليه بأنها محرمة عليه من جهتين، إحداهما: أنها ربيبته في حجره، وثانيتهما: أنها ابنة أخيه من الرضاع.

فجاء القسم الشريف هنا، مراعاة لما استقر في نفس المخاطب–أم حبيبة– على خلافه، فالقسم هنا يقوي دفع ذلك الظن، الذي وقع في القلوب موقعا عظيما، والله أعلم.

ثامناً : الدعوة إلى الإيمان بما يخالف هوى النفس.

من المعلوم بداهة أن المرء يحب نفسه أكثر من أي شيء، ولذا فهو يهوى ما تهوى نفسه، وينزعج من مخالفة هواها، وهذا يحتاج إلى أن يجاهد نفسه في تحويل هواها إلى هوى جديد، ومطالبته بذلك تحتاج إلى ما يعززه في جهاد نفسه.

ومثال ذلك ما قاله رسول الله عليه السلام :((**فوالذي نفسي بيده** لا يؤمن أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده))(65).

إن للوالدين في الإسلام مكانة عظيمة، ومنزلة رفيعة، فقد أمرنا الله تعالى ببرهما في غير ما موضع من كتابه العزيز، وجعل طاعتهما مقدمة على كل طاعة، ما لم تكن في معصية الخالق، فقال تعالى: **{وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}**(العنكبوت8) وقال أيضا: **{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً}**(الإسراء 23–24).

وكذا مكانة الولد عزيزة في النفس، فقد قال سبحانه: **{الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ**

خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً}(الكهف46) وقال أيضا: **{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}** (آل عمران14).

وعليه فإن طلب الرسول عليه السلام أن يكون أحب إلينا من الآباء والأبناء قد يبدو أمرا غير مستساغ لدى بعض الناس، فليس من السهل على الإنسان أن يحب أحدا أكثر من حبه لأبيه وأمه وولده، فاحتاج إلى القسم في تأكيد هذا المعنى.

وبناء على ذلك ليس دقيقا ما قاله الحافظ بدر الدين العيني: ((ويستفاد منه–أي الحديث– جواز القسم على الأمر المُبْهَم توكيداً ، وان لم يكن هناك ما يستدعي الحلف))[66]. نقول : بل هناك ما يستدعي الحلف، وهو أن هذا الأمر جاء في ظاهره مخالفا لما فطر عليه الناس من محبة الآباء والأبناء.

وحقيقة هذا الأمر النبوي هي أن محبتنا لرسول الله عليه السلام هي محبة دين وعقيدة، وحبنا له عليه السلام هو من محبتنا لله تعالى، فنحن نحبه عليه السلام لمكانته العلية عند الله تعالى، ونحن نحبه عليه السلام لأن الله عزّ وجلّ أمرنا بمحبته، وإن الله عز وجل الذي أمرنا بمحبة الوالد، وغرس فينا محبة الأبناء، هو الذي أمرنا بمحبة رسوله عليه السلام، وإن حبنا لوالدينا لا يتقدم على حبنا لله تعالى، وإن طاعتنا لهم لا تتقدم على طاعته سبحانه، التي منها حب رسوله عليه السلام، فداه نفسي وأبي وأمي وولدي والناس أجمعين.

تاسعاً : إظهار شدة التعجب.

أحيانا لا يكون القسم مراد الظاهر، وإنما يراد منه إظهار شدة التعجب من أمر غير مألوف، فنقسم للمخاطب لوضعه في صورة عظمة الحدث.

ومن هذا ما روته عائشة في قصة سحر رسول الله عليه السلام أنه رجع إليها فقال: ((**والله** لكأن ماءها نقاعة الحناء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين. قلت: يا رسول الله، أفأخرجته؟ قال: لا، أما أنا فقد عافاني الله وشفاني، وخشيت أن أثوِّرَ على الناس منه شراً))[67].

يصف رسول الله عليه السلام لعائشة ماء البئر التي وجد فيها السحر الذي سحره به لبيد بن الأعصم اليهودي، ويصف لها نخل تلك البئر، وهذا الوصف يحمل في طياته دهشة عظيمة لما رأى عليه السلام من تغير الماء حتى بدا في بشاعته كالماء الذي نقعت به الحناء، وحتى بدا نخلها أشبه ما يكون برؤوس الشياطين، فأراد عليه السلام أن يظهر لعائشة تعجبه من ذلك، فأكد الخبر بالقسم على معنى **إظهار التعجب.**

وخروج القسم عن مقتضى ظاهره إلى التعجب وارد في لغة العرب، قال سيبويه في باب حروف الإضافة إلى المحلوف وسقوطها: ((وقد تقول: تالله! وفيها معنى التعجب، وبعض العرب يقول في هذا المعنى: لله! فيجيء باللام، ولا تجيء إلا أن يكون فيها معنى التعجب، ولله مثلها إذا تعجبت ليس إلا))[68].

ومنه قوله تعالى: **{وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ}**(الأنبياء 57–58)، قال الزمخشري: فإن قلت: ما الفرق بين الباء والتاء؟ قلت: أن الباء هي الأصل، والتاء بدل من الواو المبدلة منها، وأن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب، كأنه تعجب من تسهل الكيد على يده وتأتيه، لأن ذلك كان أمرا مقنوطا منه لصعوبته وتعذره" [69].

عاشراً : التأكيد على حقائق خفية.

ثمة أمور تبدو عصية على الفهم والإدراك، وذلك لخفاء سبيل إدراكها، ودقة مسلكه، سيما إذا كان الظاهر شيئا آخر.

فمثلا طبع الناس من حب العدل والإنصاف، ولما جعل رسول الله عليه السلام يعطي حديث العهد بالإسلام، ولا يعطي السابقين، ويكون من أعطاهم من أقاربه، فإن الظاهر أنه مال إلى قرابته، ونسي أنصاره، ولذا سارع الشيطان إلى قلوب بض الأنصار، فنطقوا بما سوله إليهم، وبلغ ذلك رسول الله عليه السلام، فاحتاج إلى القسم ليرشدهم إلى خفاء حكمته عنهم، وأنهم هم الأحب والأقرب إليه، ما يمثل رحمته في وقايتهم من الهلكة.

فعن عمرو بن تغلب أن رسول الله عليه السلام أُتى بمال أو بسبي فقسمه، فأعطى رجالا وترك رجالا، فبلغه أن الذين ترك عتبوا، فحمد الله ثم أثنى عليه، ثم قال: ((أما بعد: **فوالله** إني لأعطي الرجل وأدع الرجل، والذي أدع أحب إليّ من الذي أعطي، ولكن أعطي أقواما لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير، فيهم عمرو بن تغلب" فقال عمرو: فوالله ما أحب أن لي بكلمة رسول الله عليه السلام حمر النعم)) [70].

موضوع الحديث يتعلق بسياسة الرسول عليه السلام في توزيع العطايا على الناس، فقد كان يعطي بعض الناس دون بعض، وظاهر هذا الفعل أنه مخالف للعدل والحكمة، فلقيت هذه السياسة عتب بعض من لم ينل من هذا العطاء شيئا، ظنا منهم أن عطاء الرسول عليه السلام دليل تفضيل منه عليه السلام لمن أعطى، فلما بلغه ذلك بين الحكمة التي اقتضت منه أن يفعل هذا الفعل، وهي أنه يعطي من يعطي تأليفا لقلبه، لضعف إيمانه، وحداثة إسلامه، مما يدل على أن من لم يعطه رسول الله عليه السلام هو أحب إليه ممن أعطاه، فهذا الحرمان كان بمثابة الشهادة من رسول الله عليه السلام بقوة إسلام صاحبه، وثبات إيمانه، بحيث لا يحتاج لمال يثبت إيمانه.

الخاتمة

تحدث هذا البحث عن القسم الظاهر في كلام رسول الله، وبيّن ألفاظ القسم التي استعملها رسول الله، وذلك نحو: والله، ورب الكعبة، ومقلب القلوب، والذي نفسي بيده، وحاولت الدراسة أن تبين الدلالة البيانية لاستخدام هذه الأقسام الخاصة في لغة رسول الله عليه السلام، وحاولت أيضا أن ترصد بعض أغراض الحديث النبوي في استعمال القسم، كالتحذير من مخالفة الشرع مع توفر دواعي الهوى، والإخبار بأمر غيبي والحث على السعي في طلب الآخرة وتقديمه على طلب الدنيا، والحث على تغيير ما استقر في النفوس من موروثات غير صحيحة، ومقابلة اليمين باليمين، وتأكيد الحقائق التي تخفى على الناس، هذا وقد تضمنت الدراسة نتائج أخرى يمكن العودة إليها في ثنايا البحث.

هوامش البحث:

1- عبد الجليل عبد الرحيم، **لغة القرآن الكريم**، مكتبة الرسالة الحديثة، الأردن، عمان، 1401هـ-1981م، ص 265.

2- زهير بن أبي سلمي، ديوان زهير، شرحه وقدم له : علي حسين فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط 1، 1408هـ/1988م، ص 105.

3- أخرجه أحمد في مسنده ح 5375، والترمذي في سننه ح 1535.

4- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، طبع مؤسسة الرسالة – مكتبة المنار الإسلامية – بيروت – الكويت، الطبعة الرابعة عشر ، 1407 – 1986، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، ج1 ص163.

5- الفيروزآبادي، **القاموس المحيط** 1483.

6- ابن سيده، ابو الحسن علي بن إسماعيل، **المخصص في اللغة** ج13 ص110.

7- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، **فتح الباري** ج11 ص516.

8- ابن هشام، **مغني اللبيب**، تحقيق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله ، دار الفكر – دمشق، الطبعة: السادسة، 1985م، ص 372، 529.

9- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية – مصر، 483/2.

10- الوشاء، محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى، **الموشى = الظرف والظرفاء**، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، شارع عبد العزيز، مصر – مطبعة الاعتماد، الطبعة: الثانية، 1371 هـ – 1953 م، ص18.

11- عباس حسن، الكتاب: النحو الوافي، دار المعارف، الطبعة: الطبعة الخامسة عشرة، 499/2.

12- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ، ص 356/1.

13- ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر، **بلاغات النساء**، صححه وشرحه: أحمد الألفي، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة، عام النشر: 1326 هـ – 1908 م، 53.

14- كاظم فتحي الراوي، **أساليب القسم في اللغة العربية**، بتصرف ص 30-31.

15- محمد بكر إسماعيل، **دراسات في علوم القرآن**، دار المنار، الطبعة: الثانية 1419هـ-1999م، ص 317.

16- المصدر نفسه، ص 318 – 320.

17- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح ، **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384هـ – 1964م، 172/10.

18- سيبويه، **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، 1408 هـ – 1988 م، ج3 ص496.

19- سيبويه، **الكتاب**، 497/3، المبرد، محمد بن يزيد، أبو العباس، **المقتضب**، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب – بيروت، 324/2.

20- عباس حسن ، **النحو الوافي** ، دار المعارف ، الطبعة: الطبعة الخامسة عشرة ، 465/2.

21- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، **فتح الباري** ، طبع دار الريان ط1407/1هـ، ج11 ص 516.

22- عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة بنت الشاطئ، **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق**، دار المعارف، الطبعة: الثالثة، ص 221 – 224.

23- فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في المملكة العربية السعودية برقم 951/ 5 وتاريخ 1406/8/5م، الطبعة: الأولى 1407هـ-1986م، 937/3.

24- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، **الفروق اللغوية**، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، ص 56.

25- عبد الحميد الفراهي، **إمعان في أقسام القرآن**، دار القلم، دمشق1994م. باختصار ص49-51.

26- الصابوني، محمد علي، **روائع البيان تفسير آيات الأحكام**، طبع على نفقة: حسن عباس الشربتلي، مكتبة الغزالي – دمشق، مؤسسة مناهل العرفان – بيروت، الطبعة: الثالثة، 1400 هـ – 1980 م، 312/1 .

27- الأحوص، **ديوان الأحوص**، جمعه وحققه عادل سليمان جمال، قدم له: شوقي ضيف، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2، 1411هـ/1990م، ص 209، ورواية الديوان : أصبحت أمنحك .

28- المبرد، **المقتضب** 267/3.

29- سيبويه، **الكتاب** ج3 / 502 -503.

30- عبد الحميد الفراهي، **إمعان في أقسام القرآن**، باختصار وتصرف يسير ص93-101.

31- يلَ فِي اسْمِ الْبَارِي سُبْحَانَهُ إِنَّهُ مأْخوذ من أَلِهَ يَأْلَه إذا تَحَيَّرَ، لأَن الْعُقُولَ تَأْلَهُ فِي عَظَمَتِهِ. وأَلِهَ يَأْلَه أَلَهاً أَي تَحَيَّرَ، وأَصله وَلِهَ يَوْلَهُ وَلَهاً. وَقَدْ أَلِهْتُ عَلَى فُلَانٍ أَي اشْتَدَّ جَزَعِي عَلَيْهِ، مِثْلُ وَلِهْتُ، وَقِيلَ: هُوَ مأْخوذ مَنْ أَلِهَ يَأْلَهُ إِلَى كَذَا أَي لجأَ إِلَيْهِ لأَنه سُبْحَانَهُ المَفْزَعُ الَّذِي يُلْجأُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ أَمر. ابن منظور: محمد بن مكرم بن على، **لسان العرب**، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – 1414 هـ ، 469/13.

32- أخرجه **البخاري** ح 3416 وح3416، و**النسائي** ح 5320.

33- ايم الله، بكسر الهمزة وبفتحها، والميم مضمومة، وهو اسم عند الجمهور، وحرف عند الزجاج، وهمزته همزة وصل عند الأكثر، وهمزة قطع عند الكوفيين ومن وافقهم، لأنه عندهم جمع يمين، وعند سيبويه ومن وافقه أنه اسم مفرد، وأصله يمين الله، ويجمع ايمنا، فيقال : وايمن الله. باختصار من: ابن حجر، **فتح الباري** ج11 ص521 و522.

34- أخرجه **البخاري** ح 6788 وأخرجه مسلم ح1688.

35- أخرجه **البخاري** ح 6956 و6243، و6253، و6956. و**النسائي** ح3762.

36- الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مادة قلب. وانظر: فتح الباري ج13 ص526377.

37- سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي، **المنتقى شرح الموطأ**، مطبعة السعادة – بجوار محافظة مصر، الطبعة: الأولى، 1332 هـ، (ثم صورتها دار الكتاب الإسلامي، القاهرة – الطبعة: الثانية، بدون تاريخ) 260/3.

38- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، **فتح الباري** ج11 ص526 و527.

39- العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين، **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، دار إحياء التراث العربي – بيروت 94/25.

40- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، **فتح الباري** ج11 ص514.

41- أخرجه **البخاري** ح52، و**مسلم** ح1599.

42- العيني، بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد، **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، مكتبة مصطفى البابي الحلبي1972م، ج1 ص 298. وقد ورد البيت في **العين** 171/5و**التهذيب** 143/9 و**اللسان** 687/1 – قلب، دون أن يُنسب لأحد .

43- مسلم، **الجامع الصحيح** ح2654.

44- أخرجه أحمد في **مسنده** ح11462، وأبو داود ح3264. وفي إسناده مقال، وضعفه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

45- أخرجه **الترمذي** ح 1656 وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه **النسائي** ح3147.

46- أخرجه **البخاري** ح1805، و5583، و7054، و7100، وأخرجه مسلم ح1151.

47- زهير بن أبي سلمى، **ديوان زهير**، ص 105.

48- ابن حجر، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، (ط. دار المعرفة - بيروت، 1379هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز)، 233/4.

49- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي، **المجتبى من السنن** = السنن الصغرى للنسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، 6/7.

50- أخرجه **مسلم** ح990، و**الترمذي** ح 617.

51- أخرجه **البخاري** ح3699.

52- أخرجه **البخاري** ح4930، ومسلم ح2439.

53- انظر: د. فضل حسن عباس، **البلاغة فنونها وأفنانها،علم المعاني** ص129.

54- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، **فتح الباري** ج1 ص102.

55- سبق تخريجه.

56- كمال عز الدين، **الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية**، دار اقرأ، بيروت: 1984 بتصرف ص105-106.

57- أخرجه **البخاري** ح1279، و3401، و3816، و3857، و6062، و**مسلم** ح2296.

58- ما بين القوسين مستفاد من الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، كمال عز الدين ص113-114.

59- أخرجه **البخاري** ح2783، و2847، و3973، و3498، ومسلم ح2404.

60- أخرجه **البخاري** ح2964، و4124، و4153، و5198، و5199، و6249، و6273، و6300، و6302، و6340، و6342، و7116، و**مسلم** ح1649. في رواية أخرى أنه لما توفرت له الإبل حملهم حملهم عليها، ثم ذكر القسم .

61- كمال عز الدين، **الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية**، بتصرف ص114.

62- سبق تخريجه.

63- أخرجه **البخاري** ح56، و1969، و**مسلم** ح2588.

64- أخرجه **البخاري** ح4813، و4817، و4818، و4831، و5057.

65- أخرجه **البخاري** ح14، وأخرجه **مسلم** ح44.

66- العيني، بدر الدين، **عمدة القاري** ج1 ص144.

67- أخرجه **البخاري** ح5430 و5716، ومسلم ح2180.

68- سيبويه، **الكتاب** ج3 ص497-498.

69- الزمخشري، **الكشاف**، 122/3.

70- أخرجه **البخاري** ح881، و**مسلم** ح150، و150.

المراجع

1- أحمد بن محمد بن حنبل، **المسند**، مؤسسة قرطبة - القاهرة.

2- الأحوص، **ديوان الأحوص**، جمعه وحققه عادل سليمان جمال، قدم له : شوقي ضيف ، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2، 1411هـ- 1990م.

3- الأزهري، محمد بن أحمد بن الهروي، أبو منصور، **تهذيب اللغة**، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 2001م .

4- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، **فتح الباري** طبع دار الريان الطبعة الأولى 1407هـ.

5- الخليل بن أحمد الفراهيدي، **العين**، تحقيق: د مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

6- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف:

- **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى – 1412 هـ.

- **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى، 1420هـ.

7- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الكشاف **عن حقائق غوامض التنزيل**، دار الكتاب العربي –بيروت، الطبعة: الثالثة – 1407 هـ، الكتاب مذيل بحاشية (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف) لابن المنير الإسكندري، وتخريج أحاديث الكشاف للإمام الزيلعي.

8- زهير بن أبي سلمى، **ديوان زهير**، شرحه وقدم له: علي حسين فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى.

9- سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي، **المنتقى شرح الموطأ**، مطبعة السعادة – بجوار محافظة مصر، الطبعة: الأولى، 1332 هـ.

10- سيبويه، **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، 1408 هـ – 1988م.

11- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، **المخصص في اللغة** تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، بيروت 1417هـ 1996م.

12- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية – مصر.

13- ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر، **بلاغات النساء**، صححه وشرحه: أحمد الألفي، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة، عام النشر: 1326 هـ – 1908م.

14- عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة بنت الشاطئ، **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق**، دار المعارف، الطبعة: الثالثة.

15- عباس حسن، **النحو الوافي** ، دار المعارف، الطبعة: الطبعة الخامسة عشرة.

16- عبد الجليل عبد الرحيم، **لغة القرآن الكريم**، مكتبة الرسالة الحديثة، الأردن، عمان، 1401هـ–1981م، ص 265

17- عبد الحميد الفراهي، **إمعان في أقسام القرآن**، دار القلم، دمشق1994م.

18- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، **الفروق اللغوية**، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

19- العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين:

- **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، مكتبة مصطفى البابي الحلبي1972م .

20- فضل حسن عباس، **البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني**، دار الفرقان للنشر والتوزيع ـ الأردن، الطبعة الرابعة 1417 هـ / 1997م.

21- فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي ، **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر** ، طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية برقم 951/ 5، تاريخ 1406/8/5م، الطبعة: الأولى 1407هـ-1986م

22- الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة – بيروت.

23- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964م.

24- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، طبع مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية - بيروت - الكويت، الطبعة الرابعة عشر، 1407هـ – 1986م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط.

25- كاظم فتحي الراوي، **أساليب القسم في اللغة العربية**، طبع الجامعة المستنصرية – بغداد 1997م.

26- كمال عز الدين، **الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية**، دار اقرأ، بيروت: 1984م.

27- المبرد، محمد بن يزيد، أبو العباس، **المقتضب**، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب – بيروت.

28- محمد بن إسماعيل الجعفي البخاري، **الجامع المسند الصحيح المختصر، من أمور رسول الله وسننه وأيامه**، تحقيق د. مصطفى البغا، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ - 1987م.

29- محمد بكر إسماعيل، **دراسات في علوم القرآن**، دار المنار، الطبعة: الثانية 1419هـ-1999م.

30- مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، **الجامع الصحيح**، دار الجيل بيروت ودار الأفاق الجديدة. بيروت.

31- ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، **لسان العرب**، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ.

32- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي، **المجتبى من السنن** = السنن الصغرى، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب.

33- ابن هشام، **مغني اللبيب**، تحقيق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، دار الفكر – دمشق، الطبعة: السادسة، 1985م.

34- الوشاء، محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى، **الموشى = الظرف والظرفاء**، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، شارع عبد العزيز، مصر - مطبعة الاعتماد، الطبعة: الثانية، 1371 هـ - 1953م .